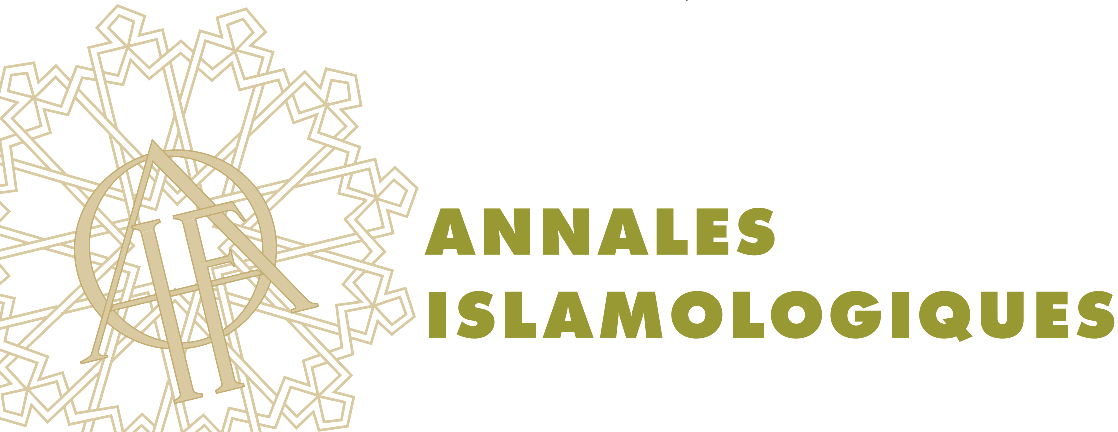


ANNALES ISLAMOLOGIQUES

AnIsl 33 (1999), p. 61-77 ar.

ʿAFĪFĪ (Muḥammad)

Ṣūrat Miṣr ʿind al-raḥḥāla al-muslimīn fī-l-ʿaṣr al-ʿuṯmānī.

خاتمـــــة

إن أهم ما يمكن أن نقوله عن نتائج هذا البحث هو صدق المقولة الهامة فى تفسير وفهم أدب الرحلات، أنه - أى أدب الرحلات - رحلة عبر المكان، لكنه فى الحقيقة - وبقدر متساوى - رحلة عبر الثقافات. فالرحالة الغربى لا يرحل إلى الجنوب فقط، لكنه يرحل إلى ثقافة أخرى ينظر إليها ويوصفها من خلال ثقافته الأصلية. من هنا تأتى «الرؤية» غربية المزاج. بحيث أن قراءاته للمكان والزمان، تحتاج إلى قراءة تفسيرية أخرى. وعلى العكس من ذلك تأتى رحلات الرحالة الشرقيين «المسلمين»، فهى رحلة - إلى حد كبير - من داخل الثقافة الواحدة، من هنا تأتى النتائج متباينة. فإذا طبقنا ذلك على حالة مصر فى العصر العثمانى، فإننا سنجد أنفسنا أمام «صورتين» للبلد الواحد، صورة خرجت من ثقافة غربية، وأخرى خرجت من ثقافة شرقية. وفى رأينا أن كلا «الصورتين» فى غاية الأهمية لمحاولة - المؤرخ - فهم واستيعاب الصورة الحقيقية لمصر فى العصر العثمانى.

ومن ناحية أخرى لا تخلو طبيعة «الصورة» سواء غربية أم شرقية من بعض الملاحظات. هناك تنويعات عديدة فى ملامح الصورة الغربية «لمصر» حسب طبيعة الرحالة إذا كان «مبشراً» أم مجرد زائراً للاراضى المقدسة أم سائحاً إلى بلاد التاريخ، أو موظفاً رسمياً. كما يحدث ذلك ايضاً بالنسبة للصورة الشرقية. فصورة مصر عند الرحالة المغاربة أكثر إشراقاً وحميمية ربما لبعد المكان، أو للأتجاه الجغرافى للمغرب العربى نحو المشرق وبوابته الطبيعية مصر. فضلاً عن ارتباط مصر بالطريق إلى مكة والمدينة. أما صورة مصر عند الرحالة الشوام فهى صورة «مألوفة» إلى حد كبير نظراً للقرب الجغرافى والصلات المستمرة، فضلاً عن عدم ارتباط الطريق بين مصر والشام بتأدية فريضة الحج. وحتى بالنسبة للرحالة «الأتراك العثمانيين» فإن صورة مصر لديهم ترتبط إلى حد كبير بالتراث الذى خلفته مصر لعالم الإسلام، إلى جانب أن مصر كولاية لم تكن بالولاية العادية داخل إطار الدولة العثمانية. وأخيراً فإن «صورة» الجهل والتدهور التى نلحظها فى كتابات الرحالة الغربيين، ربما استطاع هذا البحث أن يعيد تقييمها من خلال كتابات الرحالة «المسلمين».

AnIsl 33 (1999), p. 61-77 ar. ʿAFĪFĪ (Muḥammad)
Ṣūrat Miṣr ʿind al-raḥḥāla al-muslimīn fī-l-ʿaṣr al-ʿuṯmānī.

مرتضى الزبيدى

ولد بزبيد ونشأ وتعلم بها. وعلى عادة العلماء المسلمين كان لابد من الرحلة لزيادة صقله علمياً. ويقال أن الزبيدى أرتحل فى طلب العلم حتى وصل إلى الهند، وإلى مكة. ونصحه أساتذته بالرحلة إلى مصر حيث وصلها فى عام ١١٦٧ وهناك بدأ يدرس على يد شيوخ عصره، وتلقى عنهم الإجازة. وفى القاهرة حاز الزبيدى من العلم والشهرة ما لم يعرفه معاصريه. حيث عرفه كبار القوم وأغدقوا عليه عطاياهم تشجيعاً له وتقرباً إليه بعد إزدياد شهرته، مثل الأمير إسماعيل كتخدا عزبان، وحتى شيخ العرب همام. وأصبح مقرباً ايضاً من السادة الوفائية. والقصة الشهيرة فى هذا الشأن قصته مع محمد بك أبو الذهب. حيث أشترى الأخير نسخة من قاموس الزبيدى الشهير «تاج العروس» بمائة ألف درهم ليضمه إلى خزانة الكتب فى جامعه الشهير.

إننا هنا لا نقدم ترجمه لحياة الزبيدى. ولكننا نقصد دراسة «صورة» مصر لديه، حيث رحل إليها طلباً للعلم وللشهرة. وهناك حاز بها شهرة كبرى. إلى الحد الذى دفع تلميذه الشهير عبد الرحمن الجبرتى إلى وصف لحظة وصول الزبيدى إلى مصر بأنها لحظة حاسمة فى تاريخ عصره. وكانت مصر بالنسبة للزبيدى نقطة إلتقاء هامة للعديد من التلاميذ والعلماء الذين يفدون إليها من شتى أنحاء العالم الإسلامى. وذاعت فى الأرجاء شهرته حتى كاتبه سلاطين الدولة العثمانية، وأمراء الحجاز واليمن والهند والشام والعراق وشمال أفريقيا وبلاد السودان إلى أن توفى فى عام ١٢٠٥هـ[٣٦].

[٣٦] عن الزبيدى بصفة عامة أنظر ترجمة الجبرتى له فى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، طبعة بيروت، بدون تاريخ، جـ٢، ص١٠٣ ، ١١٤.
وايضاً محمد سيد كيلانى: الأدب المصرى فى ظل الحكم العثمانى، القاهرة د.ت ص ٢٦٨-٢٩٢. ولتقييم الأثر الفكرى الذى خلفه الزبيدى فى مصر أنظر بيتر جران: الجذور الإسلامية للرأسمالية فى مصر ١٧٦٠-١٨٤٠، ترجمة محروس سليمان، مراجعة رؤوف عباس، القاهرة ١٩٩٢، ص ١٠١ ، ١٠٣.

AnIsl 33 (1999), p. 61-77 ar.   ʿAFĪFĪ (Muḥammad)
Ṣūrat Miṣr ʿind al-raḥḥāla al-muslimīn fī-l-ʿaṣr al-ʿuṯmānī.

ذلك. من هنا حاولنا أن نسد هذا العجز بدراسة نموذج لعالم يمنى رحل إلى مصر وأستقر بها حتى وفاته. حيث حاز بها شهرة واسعة حتى أصبح «أشهر» عالم إسلامى فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر.

الكيوانى الدمشقى

هو الشاعر أحمد بك بن حسين الكيوانى الحنفى الدمشقى، المعروف بالكيوانى الدمشقى، المتوفى فى عام ١٧٥٩. وبنو كيوان هم طائفة من الناس بدمشق. خرج منها أمراء وأعيان وأجناد. ولا تتوافر لدينا معلومات كثيرة عنه. فنحن لا نعرف سنة ميلاده، ولا حتى سنة رحيله إلى مصر. على أية حال رحل الكيوانى إلى مصر وأستمر بها عدة سنوات. حيث درس وألتقى مع عملائها. ويصف الكيوانى المجالس العلمية التى حضرها فى مصر بأنه كان «يحضر فى مجلس زبدة الفقهاء»[٣٣].

كما وصف الشاعر حياته وشوقه إلى مصر بعد رحيله عنها بقوله:

سقى الله فى مصر السعيدة منزلاً — قضى الله فيه بإجتماع ذوى اللب
محل لمعسول السجايا لقاؤه — أحب إلى الظامئ من الخصر العذب
وإخوان صدق مستقيم ودادهم — وشر الاخلاء المقوم بالعتب
نعمنا به حينا من الدهر نحتسى — سلافة آداب تجم على الشرب[٣٤]

على أية حال يصف بعض مؤرخى الأدب العربى فى العصر العثمانى أثر الرحلة إلى مصر على صقل الكيوانى وإتساع شهرته قائلاً «إتسعت شهرة الشاعر وغدا ذو مكانة مرموقة فى الأدب ببلاد الشام، بعد عودته من مصر وقد إستكمل ثقافته الأدبية»[٣٥].

[٣٣] عمر موسى باشا: تاريخ الأدب العربى فى العصر العثمانى، دمشق ١٩٨٩، ص ٥٠٨.

[٣٤] نفسه ص ٥١٠.

[٣٥] نفسه ص ٥١١.

AnIsl 33 (1999), p. 61-77 ar. ʿAFĪFĪ (Muḥammad)
Ṣūrat Miṣr ʿind al-raḥḥāla al-muslimīn fī-l-ʿaṣr al-ʿuṯmānī.

ومهما يكن من أمر «المبالغة» التى نصادفها «أحياناً» فى كتابات الرحالة، فإن رحالنا هذا من أئمة عصره فى بلاده ـ فضلاً عن أن المبالغة فى حد ذاتها توضح تحسن الأحوال فى مصر مقارنة بغيرها.

كما يعقد الورثيلانى مقارنة من نوع آخر بين مصر وبلاد المغرب، حيث يشير إلى مدى الثراء والأهمية الاقتصادية لمصر بالمقارنة ببلاد المغرب «من عجائب ذلك أن أرزاقها ـ مصر ـ أكثر منها. فإن أهل وطننا، بل سائر المغاربة يعلمون أنهم ليسوا من أهل الدنيا، بل أموات بالنسبة إلى ما رأوا»[٣١]. ويلخص الورثيلانى صورة مصر ـ مثل معظم الرحالة المسلمين ـ فى عبارة واحدة قائلاً «فوطن مصر ليس كغيره»[٣٢].

الرحلة العلمية إلى مصر وإلى الشهيرة

إستكمالاً للنقطة السابقة حول «صورة» و «مكانة» مصر عند الرحالة المسلمين، سنحاول هنا معالجة ظاهرة هامة كانت فى الحقيقة «إستمراراً» لعصور سابقة، ألا وهى رحيل كبار العلماء المسلمين وإستقرارهم فى مصر إستقراراً دائماً أو مؤقتاً، طلباً للعلم وأيضاً للشهرة، حيث أصبحت مصر «كعبة» العلماء. ولا يحوز العالم صيتاً ولا شهرة إلا فى مصر. لكن المشكلة التى تواجهنا أن معظم هؤلاء لم يكتبوا لنا «رحلة» تساعدنا على إعادة رسم «صورة» مصر لديهم. من هنا كانت محاولتنا عدم إهمال هؤلاء، ومحاولة دراستهم من خلال كتابات بعض من «ترجم» لهم. وسنختار هنا نموذجين، أحدهما شامى والشام هى المنطقة الأقرب إلى مصر بالنسبة للعالم الإسلامى، بحكم توجه مصر الجغرافى نحو المشرق. أما عن المغرب فقد تناولنا من قبل بالدراسة بعض الرحالة المغاربة إلى مصر، ولاحظنا كثرة هؤلاء، بحكم توجه المغرب الجغرافى نحو المشرق، الذى تعتبر مصر بوابته. والنموذج الثانى من اليمن، دفعنا إلى ذلك عدم توفر كتابات عن رحلات ورحالة يمنيين لدينا. وربما يتاح لنا فيما بعد الإطلاع على

[٣١] الورثيلانى: ص ٥٥٥ وقارن ذلك بما قاله الرحالة المغربى ابى عبدالله القيسى فى النصف الأول من القرن السابع عشر عن مصر ونظرة المغاربة إلى مصر «فنسى كل غريب وطنه وود أن لو فيها يقضى عمره وزمنه» ص ٤٦.

[٣٢] نفسه: المصدر السابق ص٣٠٣. قارن ذلك مع ما يقوله الرحالة الشهير ابن بطوطة فى القرن الرابع عشر عن القاهرة «هى أم البلاد وقرارة فرعون ذو الاوتاد. تموج موج البحر بسكانها، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وأماكنها». عن رحلة ابن بطوطة انظر شوقى ضيف: الرحلات، القاهرة ط٤ د.ت ص ٩٥-١٢٢. وأيضا زكى حسن: المرجع السابق ص ١٤٠-١٤٢.

AnIsl 33 (1999), p. 61-77 ar.   ʿAFĪFĪ (Muḥammad)
Ṣūrat Miṣr ʿind al-raḥḥāla al-muslimīn fī-l-ʿaṣr al-ʿuṯmānī.

الحسين بن محمد الورثيلانى

يعتبر الحسين بن محمد الورثيلانى من أهم الرحالة المغاربة الذين وفدوا إلى مصر بعد العياشى. وينتمى رحالنا إلى قبيلة ورثيلان قرب بجاية. درس المذهب المالكى وتفقه فيه، حتى أصبح من أهم رموزه فى بلاد المغرب. وله العديد من الكتابات الهامة فى التصوف والأدب. قام بالرحلة إلى بلاد مصر والحجاز، ووضع فيها رحلة تعتبر من أهم المصادر التاريخية العربية لهذا العصر.

وأهم ما يستلفت الانتباه فى رحلة الورثيلانى بروز عامل «الاستمرارية» فى تأكيد «صورة» مصر فى العالم الإسلامى. إذ يذكر فى بعض الأحيان مشاهدات وتعليقات العياشى، ثم يؤكد عليها. فعلى سبيل المثال يشارك الورثيلانى العياشى فى وصف نهر النيل بأنه «أشرف الأنهار الأربعة الخارجة من الجنة». كما يذكر مقولات ابن خلدون والعياشى، ثم يؤكد ذلك بمقولات من عنده. ويعلق على إستمرارية مكانة مصر قائلاً «وأخبار مصر وما فيها من العجائب، وجميع ما يحتاج إليه من أحوالهم مستوفى فى كتب تواريخها فلا نطيل بكثير منه»[٢٨]. كما يذكر أيضاً «وبالجملة فأمر مصر وحالها من يوم عمارتها إلى الآن أمر غريب وعجائبها فى العلوم والمعارف والعوارف والولاية لا تحصى، وغرائبها كادت أن لا تستقصى فمن أختبرها وعاين أحوالها حصل له اليقين الخاص والعبرة العظيمة»[٢٩].

ويعقد الورثيلانى مقارنات فى غاية الأهمية بين مصر وبلاد المغرب توضح مدى صورة ومكانة مصر عند المغاربة إذ يعقد مقارنة بين إهتمام أهل مصر بعمارة المساجد وترميمها وضعف ذلك فى بلاد المغرب «أما أهل مغربنا فلا تكاد ترى فى مدائنهم مسجداً عظيماً قد أحدث بل ولا مهدماً قد جدد أو واهياً قد أصلح. بل لو سقط شئ من أكبر مساجدهم فأحسن أحوالهم فيه إن كان مبنياً برخام أن يعاد بأجر وجص. وإن كان مجصصاً أن يعاد بطين. بحيث تجد المسجد كأنه مرقعة فقير هندى»[٣٠].

[٢٨] الحسين بن محمد الورثيلانى: نزهة الانظار فى فضل علم التاريخ والأخبار، المشهورة بالرحلة الورثيلانية، ط٢، بيروت ١٩٧٤، ص ٢٧٤.

[٢٩] نفسه ص ٣١٦ وقارن ذلك مع ما قاله ابن خلدون (الرحالة المغاربى) فى وصف القاهرة فى القرن الرابع عشر «رايت حاضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الأمم ومدرج الذر من البشر وإيوان الإسلام» أحمد رمضان: المرجع السابق، ص ٢٢٤.

[٣٠] نفسه ص ٢٦٦.

AnIsl 33 (1999), p. 61-77 ar.   ʿAFĪFĪ (Muḥammad)
Ṣūrat Miṣr ʿind al-raḥḥāla al-muslimīn fī-l-ʿaṣr al-ʿuṯmānī.

أبو سالم العياشى

يعتبر أبو سالم العياشى من أهم وأشهر الرحالة المغاربة فى القرن السابع عشر، حيث قام برحلته الشهيرة إلى المشرق، هذه الرحلة التى سميت بـ«الرحلة الكبرى» أو «ماء الموائد» أو «الرحلة العياشية». وستصبح هذه الرحلة مرجعاً بعد ذلك للكثير من الرحالة المغاربة الذين يرتادون المشرق. وكأغلب الرحالة المغاربة كان الهدف الرئيسى لرحلة العياشى الحج إلى الحرمين الشريفيين. ولكن لم تخلو رحلة العياشى من أهداف ثقافية من لقاء علماء المشرق الإسلامى، فضلاً عن جلب المخطوطات المشرقية إلى المغرب. على أية حال فإننا نجد عند العياشى «صورة» لمدى الخصب والنماء الذى تتمتع به مصر. هذه الصورة التى تتكرر بإستمرار عند معظم الرحالة المغاربة. إذ يصف مصر قائلاً «لا يوجد بلد أوسع مزارع وأكثر خصباً مع إتصال العمارة نحو الشهر من هذه البلد»[٢٤]. كما يصور العياشى مدى أهمية مصر والدور الذى تلعبه فى إستضافة قافلة الحج المغربى. ويؤكد على تفضيل المغاربة الانضمام إلى ركب الحج المصرى، نظراً لقدرته على تأمين الطرق الصحراوية من هجمات العربان فضلاً عن الرخاء الاقتصادى «النسبى» فى هذا الركب[٢٥].

وعلى عادة الرحالة والجغرافيين وحتى المؤرخين المسلمين الأوائل يصف العياشى نهر النيل بأنه «أشرف الأنهار الأربعة الخارجة من الجنة، وأثر بركته مرآة للعيان فى مائه وترابه وقراه ومداينه»[٢٦].

ومن ناحية أخرى تعتبر رحلة العياشى مصدراً فى غاية الأهمية للحياة الثقافية فى مصر فى القرن السابع عشر. إذ يصور «مكانة» مصر فى العالم الإسلامى. حيث يبرز مدى أهمية الدور الثقافى لعلماء الأزهر، وصدى فتواهم وإنتشارها فى العالم الإسلامى. ويصف الجامع الأزهر بأنه «معمور بالذكر والتلاوة والتعليم آناء الليل وأطراف النهار. فهو عديم النظير فى مساجد الدنيا بأجمعها حاشا المساجد الثلاثة»[٢٧].

[٢٤] العياشى: الرحلة الكبرى، ماء الموائد، طبع حجرى فاس.
[٢٥] نفسه ص ١٥٧.
[٢٦] نفسه ص ١٢١.
[٢٧] نفسه ص ١٢٦.

إن استرجاع أشعار السابقين حول «مكانة» و «صورة» مصر يعتبر فى حد ذاته دليلاً على عامل الاستمرارية في ذلك الشأن. ولا أدل على ذلك من أن النابلسى ينظم أيضاً فى مكانة مصر قائلاً:

لم نجد مثل مصر ذات الفنون　　　حيث فيها سقاية الحلزون [21]

ولا أدل على مكانة مصر الثقافية آنذاك من حادثتين يرويهما النابلسى. الأولى عند زيارته لمجلس الشيخ زين العابدين البكرى. حيث عرض عليهم البكرى كتاباً فى التاريخ، يذكر النابلسى أنه «كتاباً كبيراً جداً فى مجلد واحد اسمه قانون الدنيا. يذكر فيه إبتداء خلق الدنيا بالتفصيل، ثم يذكر الأقاليم السبعة وما خرج عنها. ويذكر البلدان جميعها وما أشتملت عليه من الاماكن والأنهار والبحار ومن خرج منها من العلماء والشعراء وغيرهم، ويترجمهم بذكر مصنفاتهم وفضايلهم ووفياتهم وموالدهم إلى غير ذلك» ويعلق النابلسى على ذلك قائلاً أن أحد باشوات مصر قد أعجب بهذا الكتاب بشدة، وأنه طلب من البكرى إستنساخ نسخة من هذا الكتاب، فوافق البكرى. وعلى هذا فليس للكتاب إلا أصل يحتفظ به البكرى، ونسخة فى «بلاد الروم» [22].

أما الحادثة الثانية فهى فى غاية الأهمية لأنها توضح «صورة» و «مكانة» مصر فى قلب أفريقيا السوداء. حيث دار جدل حاد فى ذلك الزمان حول الدخان، حرام أم حلال. إذ يروى النابلسى قصة الشيخ سيدى أحمد بابا المالكى من تنبكتو، الذى رأى أن الدخان حلال. لكن بعض الناس فى بلاده أفضوا إليه بأن الشيخ إبراهيم اللقانى المصرى المالكى، قد افتى بتحريم الدخان. والشيخ اللقانى هو علامة عصره. وهنا أراد الرجل أن يضفى الشرعية على فتواه، وأن يقنع اللقانى، حتى يكتسب، أحمد بابا، مصداقية أمام أهله فى تنبكتو. وبصرف النظر عن الجدل الذى دار حول الدخان بين اللقانى وأحمد بابا، فإن هذه الحادثة توضح مدى «صورة» و «مكانة» مصر فى العالم الإسلامى، حتى فى قلب إفريقيا، وأيضاً بالنسبة للمذهب المالكى السائد فى بلاد المغرب وأفريقيا الإسلامية [23].

[21] نفسه ص ٢٤٨.
[22] نفسه ص ٢٥٣ ، ٢٥٤.
[23] نفسه ص ٤٢٩.

عبد الغنى بن إسماعيل النابلسى

رحالنا هذه المرة ينتمى إلى المشرق العربى فهو من دمشق. وعلى عكس حالة أبو عبد الله القيسى المغربى الذى لا نعرف عنه الكثير، يعتبر عبد الغنى النابلسى من أفاضل علماء دمشق عند نهاية القرن السابع عشر ومطلع الثامن عشر. وهو حنفى المذهب، عالم، أديب، ناثر، ناظم، صوفى مشارك فى أنواع العلوم[١٩]. وقام عبد الغنى النابلسى برحلته بين عامى ١١٠٥ ، ١١٠٦ متنقلاً بين بلاد الشام ومصر والحجاز. والغريب أن أبيه قد رحل أيضا إلى مصر من قبل للأخذ «عن جماعة محققين من العلماء المصريين» حيث تلقى العلم على يد أئمة المذهب الحنفى فى مصر مثل بن نجيم والشرنبلالى. من هنا سار الابن على درب أبيه فى نهج «الرحلة العلمية» التى غالباً ما كانت تنتهى بتأدية شعائر الحج فى الأراضى الحجازية.

وفى مصر نزل النابلسى ضيفاً على الشيخ زين العابدين البكرى شيخ السادة البكرية فى مصر آنذاك. وكانت دار البكرية مجلساً من مجالس العلم. وقدم النابلسى وصفاً دقيقاً لهذا المجلس وغيره من المجالس التى شارك فيها.

وكما ذكرنا من قبل فإننا لن نهتم كثيراً بتفاصيل الرحلة. حيث أن ما يهمنا هنا هو «صورة» و«مكانة» مصر. لكن رحلة النابلسى توضح لنا أيضاً مدى «إستمرارية» مكانة مصر فى عالم الإسلام «حتى» فى العصر العثمانى. ولا أدل على ذلك من «إستدعاء» و«استشهاد» النابلسى عندما تطأ قدميه أول حدود مصر بأشعار السابقين فى الشوق إلى مصر. إذ يذكر النابلسى ذلك قائلاً «قطعنا ذلك بحمد الله تعالى نحن والاخوان بالسهولة والأمان، متمثلين بقول شمس الدين محمد بن يوسف بن عبدالله الخياط عليه رحمة الرحمان:

يا أهل مصر أنتـم للعلا   كواكب الاحسان والفضل
لو لم تكونوا لى سعودا لما   وافيتكم أضرب فى الرمل

ويذكر أيضاً ويناسبه قول البهاء زهير وقد سار على هذا السير:

بعدت ولم تبعد على عاشق مصر   فوافاك مشغوفا بك الحمد والشكر[٢٠]

[١٩] عبد الغنى بن إسماعيل النابلسى: الحقيقة والمجاز فى الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، تقديم وإعداد أحمد عبد المجيد هريدى، القاهرة ١٩٨٦، ص ٩ ، ١٠.

[٢٠] نفسه ص ١٧٣ ، ١٧٤.

AnIsl 33 (1999), p. 61-77 ar. ʿAFĪFĪ (Muḥammad)
Ṣūrat Miṣr ʿind al-raḥḥāla al-muslimīn fī-l-ʿaṣr al-ʿuṯmānī.

ومثله مثل الكثيرين من الرحالة المسلمين ولاسيما المغاربة، كان السر وراء قيامه بالرحلة هو القيام بفريضة الحج[١٥]. وتكمن أهمية رحلة أبى عبدالله القيسى ليس فى طبيعة الوصف الدقيق الذى يقدمه لمصر مثلما قدم الرحالين السابق الحديث عنهما، ولكن فى نظرته إلى مصر، لاسيما القاهرة. هذه الصورة التى تذكرنا إلى حد كبير بالصورة التى يقدمها الرحالة المسلمين لمصر فى عصورها السابقة. مما يوضح عامل «الاستمرارية» فى طبيعة «الصورة» و«المكانة».

إذ يصف القاهرة قائلاً «يا لها من قاهرة ما أحسنها وأبدع جمالها وأوصافها. أو فى البلاد طهرة، وأزكاها فطرة، وأفسحها رقعة». كما يقدم لنا أيضاً مدى «مكانة» مصر بالنسبة للمغاربة، حيث كانت تمثل نقطة هامة فى قافلة الحج المغربى «دهليز البلد الحرام وقبالة الباب والمقام»[١٦].

ويحتل نهر النيل أهمية كبرى فى صورة مصر عند الرحالة المسلمين دوماً. حيث يمثل معنى الاستقرار والحضارة «هذا البحر أعجب البحور شمائل وأعذبها وارداً، وأطيبها نشراً». ثم يصور النيل فى عبارة ذات مغزى خاص «فسبحان من خص به مصر»[١٧].

ويلعب الأزهر دوراً هاماً فى تدعيم «صورة» مصر و «مكانتها» الثقافية والدينية فى العالم الإسلامى «جامع الأزهار المشرقة، والأنوار الشهيرة الذكر فى الحواضر والأمصار، لا مسجد يعدله فى قطر». على أية حال يلخص القيسى صورة مصر لديه فى عبارة بليغة توضح مكانة مصر لدى من يزورها «فنسى كل غريب وطنه وود أن لو فيها يقضى عمره وزمنه»[١٨].

[١٥] عن دور الحج فى تشجيع الرحلة والرحالة المسلمين أنظر:
أحمد رمضان: الرحلة والرحالة المسلمون، جدة، د.ت.
وايضا:
زكى حسن: الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى، بيروت ١٩٨١.

[١٦] أبى عبدالله القيسى: المصدر السابق ، ص ٤٣.

[١٧] نفسه ص ٤١. ويصف الهروى السائح فى مطلع القرن الثالث عشر النيل قائلاً «وبالجملة فإن ديار مصر ونيلها من عجائب الدنيا» زكى حسن، المرجع السابق، ص٩٣.

[١٨] ابى عبدالله القيسى: المصدر السابق ص ٤٦.

AnIsl 33 (1999), p. 61-77 ar. ʿAFĪFĪ (Muḥammad)
Ṣūrat Miṣr ʿind al-raḥḥāla al-muslimīn fī-l-ʿaṣr al-ʿuṯmānī.

ومن ناحية أخرى سنلتقط من وصف مصطفى على للقاهرة فقرة بسيطة للمقارنة بين هذا الوصف والنظرة الاستشراقية للتاريخ. حيث دأبت معظم الدراسات التى تناولت الحملة الفرنسية على مصر على التهويل من شأن بعض الإجراءات الإدارية «البسيطة» التى اتخذتها الحملة بشأن النظافة فى مصر. وكأن القاهريون لم يعرفوا ذلك من قبل. إذ يسجل مصطفى على إعجابه بنظافة الشوارع فى الأحياء التجارية فى القاهرة. حيث يتم كنس ورش الشوارع فى مقابل مبلغ بسيط يشارك فيه أصحاب الحوانيت. كما يتم رفع القمامة والنفايات ونقلها بعيداً على ظهر الحمير[١٣].

إن الوصف السابق الذى يقدمه مصطفى على يجعلنا نتسآل هل نسى أو أهمل المصريون أعمال النظافة للطرقات مع مجئ الحملة الفرنسية!! إن المشكلة هنا «دور الدولة» ومفهوم «الإدارة». ففى العصر العثمانى كانت التنظيمات الأهلية طوائف الحرف والتجار هى المسئولة عن ذلك. أما بالنسبة للحملة الفرنسية فهنا دور «الدولة والإدارة». من هنا التضخيم من شأن «الإجراءات الإدارية» وعدم الاهتمام بالدور الذى تلعبه «طوائف الحرف والتجار».

أبى عبد الله القيسى الشهير بالسراج الملقب بابن مليح «المغربى»

نعود مرة أخرى إلى المغرب العربى حيث ينتمى رحالنا هذه المرة. ويعود زمن رحلته إلى عامى ١٦٣٠-١٦٣٣. ويدخل أبو عبد الله القيسى فى زمرة الرحالة «غير المشهورين». فكما أوضحنا من قبل ستضم عينتنا رحالة مشهورين وغير مشهورين، حتى تكتمل إلى حد ما أبعاد «صورة» مصر لدينا فى عيون هؤلاء الرحالة. ويكتفى محقق هذه الرحلة بذكر أن المؤلف «عربى قيسى الأصل، صوفى النزعة ولا نعلم عنه أشياء كثيرة»[١٤].

١٣ وأنظر ص ١٠ فى ذكر الأحاديث والآيات حول مصر. *Ibid.*, p. 13.

١٤ أبى عبد الله القيسى الشهير بالسراج الملقب بابن مليح: أنس السارى والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والاعارب، ١٦٣٠-١٦٣٣، تحقيق محمد الفاسى، فاس ١٩٦٨، المقدمة.

AnIsl 33 (1999), p. 61-77 ar. ʿAFĪFĪ (Muḥammad)
Ṣūrat Miṣr ʿind al-raḥḥāla al-muslimīn fī-l-ʿaṣr al-ʿuṯmānī.

مصطفى على «العثمانى» ١٥٩٩

إذ كنا قد تناولنا سابقاً رحالة أندلسى الأصل مغاربى ذو ثقافة عربية وأيضاً أوربية، ينتمى إلى بدايات القرن السادس عشر، فاننا هنا سنميل إلى أقصى الطرف الآخر. إذ يرجع رحالنا هذه المرة إلى عالم أواخر القرن السادس عشر. كما يمثل الطرف الآخر الصاعد فى عالم الإسلام بعد غروب الأندلس، ونقصد به الدولة العثمانية. ويعتبر مصطفى على من أشهر العلماء الموسوعيين العثمانيين. فله العديد من الكتابات فى التاريخ والشعر فضلاً عن ميادين أخرى. كما زار مصر مرتين، الأولى فى عام ١٥٦٨، والثانية فى عام ١٥٩٩ [١٢].

وجاءت الزيارة الأولى له من جراء عمله ككاتب فى معية لالا مصطفى باشا الذى عين سرداراً على اليمن. حيث قام مصطفى على بزيارة سريعة للقاهرة وهو فى طريقه إلى اليمن. لكن هذه الزيارة تركت لديه العديد من الذكريات السعيدة. إذ أدرك مدى الأهمية «الثقافية» لمصر. لذلك سعى لدى السلطان لتعيينه دفتردارا لمصر. ويبرر مصطفى على ذلك بإن القاهرة ستصبح له بمثابة المكان الملائم والأمثل لإستكمال مشروع كتابه عن تاريخ العالم. حيث تتوافر فى القاهرة المصادر اللازمة لذلك. لكن حلمه هذا سيتأخر طويلاً.

فلم يعد مصطفى على إلى القاهرة إلا فى عام ١٥٩٩. حيث زار القاهرة لمدة قصيرة لا تتجاوز الشهرين. إذ عين أميناً لميناء جدة. وهى الفترة التى سيبدأ فى نهايتها كتابة «وصف القاهرة». وحتى بعد رحليه إلى جدة، لا ينسى مصطفى على حلمه القديم فى الاستقرار فى مصر. إذ يطلب من السلطان تعيينه حاكماً على مصر. هذا الحلم الذى لن يتحقق.

إن ما يهمنا هنا ليس الوصف التفصيلى الدقيق الذى قدمه للقاهرة، والذى يحمل أوجه نقد وأوجه إستحسان، ولكن ما يهمنا هنا هو «صورة» مصر و «مكانتها» لديه. فكما مر بنا كان حلمه الدائم الاستقرار أطول فترة ممكنة فى القاهرة لإستكمال مشروعه الكبير فى كتابة تاريخ العالم. وعلى مدار حياته لا ينسى قط حلمه السابق. إذ يطلب دائماً الوظيفة فى مصر سواء كان دفترداراً أو واليا عليها. مما يوضح لنا «مكانة» مصر ك «ولاية» وك «مركزاً ثقافياً» ذو تراثاً بعيداً.

[١٢] *Mustafa ʿAli's Description of Cairo*, 1599, translation, Notes by Andreas Tietze, Vienna 1975, p. 7, 8.

AnIsl 33 (1999), p. 61-77 ar. ʿAFĪFĪ (Muḥammad)
Ṣūrat Miṣr ʿind al-raḥḥāla al-muslimīn fī-l-ʿaṣr al-ʿuṯmānī.

المسيحية. وعرف بعد ذلك بإسم ليو الإفريقى. ولا تتوافر الكثير من المعلومات حول حياته فى إيطاليا، حيث كتب هناك رحلته «وصف أفريقيا».

ولا يهمنا هنا الوصف الدقيق الذى قدمه ليو لمصر وأهم مدنها، ونظم الحكم فيها فى نهايات العصر المملوكى وبداية العثمانى، ولكن يهمنا «صورة» مصر لديه. لاسيما وأنه جمع بين الثقافة الشرقية والغربية. ومثله مثل معظم الرحالة المسلمين والغربيين يبدأ الوزان وصفه لمصر متحدثاً ومشيداً بعظمة تاريخها القديم «ظلت مملكة مصر لمدة طويلة تحت حكم المصريين أى الفراعنة الذين كانوا ملوكاً عظاماً، وأقوياء جداً، كما تشهد على ذلك آثارهم من أبنية بديعة وعجيبة. ولا يزال التاريخ يتكلم عنهم»[9]. إن هذه النقطة فى غاية الأهمية لأنها ستضفى على مصر سحر وعبق التاريخ فى كتابات الرحالة الشرقيين والغربيين.

وسترتبط صورة مصر إلى حد كبير فى كتابات الرحالة بوصف القاهرة وبيان مكانتها وأهميتها. من هنا يصف الوزان القاهرة قائلاً «من المشهور أن القاهرة هى أحدى أكبر مدن العالم ومن أكثرها رونقاً وبهاء»[10]. وسنلاحظ بعد ذلك مدى «الاستمرارية» فى وصف القاهرة وبيان مدى أهميتها لدى الرحالة التاليين. كما سيحظى النيل بأهمية خاصة لدى معظم الرحالة الشرقيين، وهو تقليد يمتد عند رحالة العصور السابقة على العصر العثمانى، لاسيما مع إدراك الجميع أن النيل هو أصل الحضارة فى مصر، وسر نماءها الاقتصادى. يقول ليو «لو سردنا كل ما قاله الجغرافيون عن النيل، لأصيب كل الناس بالدهشة والتعجب، ومن المحتمل ألا يصدقوا ذلك»[11].

وفى رأينا أن كتابات ليو الأفريقى فى غاية الأهمية بالنسبة لما تقدمه من وصف تفصيلى لمصر وأشهر مدنها فى الدلتا والصعيد، فضلاً عن نظم الحكم فيها. لكنها لاتخدم «كثيراً» النقطة محل الدراسة «صورة» مصر. ولعل ذلك يرجع إلى طبيعة الفترة الانتقالية التى عاشها ليو فى مصر، ونقصد بها الانتقال من العصر المملوكى إلى العصر العثمانى. ايضاً الحرص البالغ له على تقديم وصف «جغرافى» تفصيلى. على أية حال هو يعطينا نقطة بداية هامة حول أهمية القاهرة فى ذلك الوقت كاحدى كبرى المدن العالمية.

[9] الحسن بن محمد الوزان الزياتى (ليو الافريقى): وصف أفريقيا، ترجمة عبد الرحمن حميدة، الرياض ١٣٩٩هـ، ص ٥٦٥.

[10] نفسه ص ٥٧٨.

[11] نفسه ص ٦٣٣.

AnIsl 33 (1999), p. 61-77 ar. ʿAFĪFĪ (Muḥammad)
Ṣūrat Miṣr ʿind al-raḥḥāla al-muslimīn fī-l-ʿaṣr al-ʿuṯmānī.

خطة البحث

وقد حاولنا قدر الإمكان عدم المبالغة فليس هدفنا هنا هو التعظيم أو «تقديس» الفترة العثمانية. ففى رأينا أنها فى النهاية «حقبة تاريخية» لها ما لها وعليها ما عليها. حتى لا تستغل دراستنا فى صالح إتجاهات سياسية ودينية معينة. كما حاولنا قدر الإمكان أن تتوافر لدينا «شهادات» رحالة مسلمين تغطى فترة القرون الثلاث محط الدراسة. وأن تتدعم دراستنا بكتابات رحالة المشرق والمغرب، حتى تتكون لدينا بشكل اقرب إلى الدقة «صورة» مصر. وحرصت الدراسة على تناول كتابات رحالة «علماء» مشهورين، وكتابات أخرى لرحالة مغمورين، حتى تتضح لدينا الأبعاد المختلفة «للصورة». ولكن يبقى فى النهاية أنه قد حكم كل ذلك مدى إمكانية توافر هذه الكتابات لاسيما مع عدم الاهتمام بنشر كتابات الرحالة المسلمين فى العصر العثمانى، على عكس الاهتمام الاوربى بنشر كتابات «الرحالة»[٨].

الحسن بن محمد الوزان «ليو الافريقى»

وأول الرحالة لدينا فى بداية العصر العثمانى هو الحسن بن محمد الوزان المعروف بـ«ليو الافريقى». حيث ولد فى غرناطه فى تاريخ غير معروف بدقة يتراوح بين عامى ١٤٨٩ و١٤٩٥. وعقب استيلاء الملكين فرديناند الخامس وإيزابيلا على الأندلس فى عام ١٤٩٢، فرت أسرة الحسن الوزان إلى فاس فى المغرب حيث تلقى تعليمه هناك. وجال فى بعض البلدان الإسلامية فى رحلات طويلة. وكانت بعض هذه الرحلات لحساب سلطان المغرب كرحلات دبلوماسية.

وتأتى أهمية رحلة الحسن الوزان لمصر أنه قام بها فى عام ١٥١٧ وهو عام الفتح العثمانى لمصر. وبالفعل يذكر الحسن الوزان أنه كان فى مدينة رشيد فى نفس الوقت الذى كان السلطان سليم فى هذه المدينة. وأدى الوزان فريضة الحج وعاد إلى مصر ومنها أراد العودة إلى المغرب. لكن سفينته وقعت فى أسر «الافرنج» قرب جزيرة جربة فى تونس. حيث اقتيد إلى إيطاليا وقدم هدية للبابا ليو العاشر وأجبر على اعتناق

[٨] نذكر فى هذا المجال المشروع الذى قام به المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بنشر عشرات من الرحلات إلى مصر فى مجموعة Voyageurs occidentaux en Égypte.

AnIsl 33 (1999), p. 61-77 ar. ʿAFĪFĪ (Muḥammad)
Ṣūrat Miṣr ʿind al-raḥḥāla al-muslimīn fī-l-ʿaṣr al-ʿuṯmānī.

الحديثة على يد محمد على. وهكذا سقط العصر العثمانى بين «مجدين». إذ يشيد البعض بوضع مصر فى عهد سلاطين المماليك كقاعدة لإمبراطورية كبرى وإنتهاء ذلك و«نهاية التاريخ» بزوال دولة المماليك و«الاحتلال» العثمانى و«التدهور» الذى لحق بمصر. إذ يلخص رأيه فى الفترة العثمانية قائلاً «أصبحت مصر نيابة تابعة للعثمانيين بعد أن كانت دولة كبرى فى الشرق العربى، وسلطانها أعظم السلاطين فى سائر البلاد قاطبة. مما ترتب عليه تدهورها إلى الحضيض. حقاً لقد مرت مصر فى تاريخها الطويل بفترات تدهور إلا أن التدهور الذى وقع لها على أيدى العثمانيين لم يكن له مثل، بحيث مس كل كيانها، بما فيه الكيان النفسى. ولا تزال تعانى من آثاره إلى الوقت الحاضر»[٦].

ويتناسى أصحاب هذا الاتجاه ما وصلت إليه مصر عند نهاية هذا العصر ـ عصر سلاطين المماليك ـ من تعقيدات داخلية وخارجية. حيث يرى اتجاه آخر أن مصر فى نهاية هذا العصر كانت تعانى من العديد من المشاكل ومن تصاعد «التدهور» فى أحوالها[٧].

فكرة البحث

من هنا تطمح دراستنا إلى معالجة «صورة» مصر عند الرحالة المسلمين لتأكيد مدى «الاستمرارية» أو انقطاعها فى «مكانة» و«دور» مصر فى المحيط الذى قدر لها أن تتعايش فيه وتكيف «دورها» التاريخى معه. وبيان النظرة «الشرقية» لصورة مصر إزاء النظرة «الغربية» لها.

[٦] عبد المنعم ماجد: طومان باى آخر سلاطين المماليك فى مصر، القاهرة ١٩٧٨، ص ٢٢٢.

[٧] «هكذا تنهار دولة سلاطين المماليك من الداخل حتى إذا ما دهمتها جيوش آل عثمان الاتراك تسقط بعد معركتين فاصلتين» أنظر:
قاسم عبده قاسم: دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى، عصر سلاطين المماليك، القاهرة، ط٢ ، ١٩٨٣، ص ١٧٧.

AnIsl 33 (1999), p. 61-77 ar.   ʿAFĪFĪ (Muḥammad)
Ṣūrat Miṣr ʿind al-raḥḥāla al-muslimīn fī-l-ʿaṣr al-ʿuṯmānī.

تأخر البلاد وتقهقرها وتناقص عدد سكانها. ولو قارنت بين حالتها فى ذلك العهد وحالتها من قبل لرأيت أن البلاد قد رجعت القهقرى خطوات واسعة »[3]. ومن يراجع المصادر التى أعتمد عليها الرافعى عند معالجته لهذا العصر سيدرك مدى التأثير الشديد لكتابات الرحالة الغربيين وكتاب وصف مصر على كتاباته.

ولا تخلو الكتابات الأكاديمية المصرية الأولى من التأثر الشديد بكتابات الرحالة الغربيين، مع تحفظنا الشديد عن ذكر الأمثلة لهؤلاء الرواد. وقد دفعهم إلى ذلك صعوبة الوصول إلى مصادر العصر العثمانى، كما أن الاعتماد على كتابات الرحالة الغربيين يخدم ترسيخ الصورة القاتمة لهذا العصر، ويعلى من شأن المدرسة «الملكية» فى كتابة تاريخ مصر وتمجيد أسرة محمد على، فضلاً عن صورة القرن التاسع عشر كعصر التحديث ليس فى مصر فحسب بل فى الدولة العثمانية، بل وفى الكثير من البلدان الشرقية. وربما لم يخرج عن ذلك إلا شفيق غربال عند نشره لأجوبة حسين أفندى الروزنامجى، وإن تأثر غربال قبل ذلك بشدة بكتابات الرحالة والقناصل الأوربيين. كما تعتبر مقدمة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم لكتاب تلميذه عبد الرحيم عبد الرحمن عن «الريف المصرى فى القرن الثامن عشر» وتلميذته ليلى عبد اللطيف عن «الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى »[4] خير شهادة عن جيل الرواد الذى اعتمد فى نظرته إلى العصر العثمانى على «مصادر غربية» أدرك بعد ذلك مدى الأيديولوجيا بها وعلو النظرة الغربية فيها. من هنا كان دفعه بتلاميذه بإعادة قراءة التاريخ العثمانى من مصادره الأولية منعطفاً هاماً للمدرسة التاريخية المصرية.

من ناحية أخرى وصم الكثيرون العصر العثمانى بالتدهور دون مراجعة دقيقة لمفهوم «التدهور»[5] وأبعاده المختلفة ومدى إنطباق ذلك على العصر العثمانى. وعقد هؤلاء مقارنة من وجهة نظر «قومية» بين ذروة المجد فى عصر سلاطين المماليك وبناء مصر

[3] عبد الرحمن الرافعى: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر، القاهرة، ١٩٨١، ص٥٤. وعن مدى تأثير كتابات الرحالة الأجانب على نظرة جيل الرواد إلى العصر العثمانى «إذا كان العصر العثمانى من أغمض عصور التاريخ المصرى وأشدها ظلاماً فإن هذه المجموعة من آثار الرحل الغربيين، تعتبر أهم مراجعنا فى دراسته وتصويره». محمد عبدالله عنان: مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، ط٢، القاهرة ١٩٩٨، ص ٢٣٣.

[4] عبد الرحيم عبد الرحمن: الريف المصرى فى القرن الثامن عشر، ط٢، القاهرة ١٩٨٦، المقدمة وأيضا: ليلى عبد اللطيف: الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، القاهرة ١٩٧٨، المقدمة.

[5] يرى البعض «أنه لا يجوز فى إطار الدراسة العلمية استخدم هذه الكلمة ـ التدهور ـ إلا لوصف إحدى حالتين: الأولى هى إنخفاض شديد فى السكان، والثانية هى انخفاض شديد فى الثروة... وإذ نظرنا إلى الفترة العثمانية فإننا لا نجد وثائق أو بيانات تدل على وجود مثل تلك الأحداث الضخمة». أنظر تعقيب جيلان آلوم على الدراسات التاريخية الخاصة بمصر فى العصرالعثمانى، فى محمد عفيفى، إشراف، المدرسة التاريخية المصرية، القاهرة ١٩٩٧، ص ١٧٠.

الغربيين والذى تم ترجمته أخيراً إلى العربية، لبيان مدى الأيديولوجيا فى تصوير «تدهور» أوضاع مصر تحت الحكم العثمانى. حيث زار جون أنتيس «الرحالة الانجليزى» مصر فى الفترة من ١٧٧٠-١٧٨٢. ويصف الرحالة سكان مصر فى أواخر القرن الثامن عشر بأنهم يعيشون فى مرحلة الانحطاط والتردى، وشتان بين حالهم وحال أجداداهم الفراعنة. حيث يجرى هذه المقارنة قائلاً: «إن المصريين القدماء كانوا علماء حقيقيين فى الفلك. أما معاصروهم فهم علماء فى التنجيم والدجل». وقد فسر أسباب «انحطاطهم الحضارى» إلى هذه الدرجة التى تدعو للرثاء بأن نظام الحكم القائم على الطغيان الشرقى حرم الناس من حقوقهم المشروعة فى التعبير عن أنفسهم، وتذوق الفنون الجميلة وحرمانهم من إشباع غريزة المعرفة وإعاقتهم عن تحسين أحوالهم الاقتصادية. ويرى أن ذلك يرجع إلى «سوء تنظيم البلاد، حتى أن المعدمين منهم راضون وقانعون بحياتهم التعسة المزرية، بالرغم من أنهم يعيشون فى قلب فردوس الأرض». ويبلغ به اليأس حد القول بأن المصريين غير مؤهلين لحكم أنفسهم بأنفسهم. والحل من وجهة نظره وقوع مصر فى حوزة دولة كبرى متحضرة وقوية تعمل على إصلاح أحوالها وتحديثها. أو أن يظهر من بين المصريين بطل قومى متسلح بسلطات مطلقة ليمزق الاطمار البالية، وينفض عنها التراب، ويقوم بحركة إصلاح جذرية على نحو ما فعل بطرس الأكبر بالروس[٢]. إنه هنا يعبر خير تعبير عن نظرة الاستشراق، فإما الاستعمار ورسالة «الرجل الأبيض» أو «البطل» ونظرية «السوبرمان» «المخُلص» «المستبد العادل».

وقد وقع العديد من المؤرخين «الشرقيين» تحت تأثير كتابات «الرحالة الغربيين» كمصدر أساسى وأحياناً «أحادى» إلى جانب كتابات الجبرتى، عند التطرق إلى العصر العثمانى. دفعهم إلى ذلك النظر إلى القرن التاسع عشر على أنه عصر «التحديث» وبناء الدولة «الحديثة» «القومية». أو لصعوبة الوصول إلى «مصادر» العصر العثمانى. وسنذكر هنا بعض الأمثلة لهذا الاتجاه التقليدى.

تمثل كتابات عبد الرحمن الرافعى خير تمثيل هذا الاتجاه، لاسيما مع الأخذ فى الاعتبار التأثير الشديد لكتاباته على «المدرسة القومية» فى كتابة التاريخ المصرى. يقول الرافعى «كان لنظام الحكم الذى رزخت تحته البلاد من عهد الفتح العثمانى أسوأ الأثر فى حالاتها السياسية والعمرانية. فلا غرو أن نظام الحكم بعد الفتح العثمانى أدى إلى

[٢] جون أنتيس: مذكرات رحالة عن المصريين وعاداتهم وتقاليدهم (١٧٨٢-١٧٧٠)، ترجمة وتعليق سيد الناصرى، القاهرة ١٩٩٧، ص ٢٣ ، ٢٤.

AnIsl 33 (1999), p. 61-77 ar. ʿAFĪFĪ (Muḥammad)
Ṣūrat Miṣr ʿind al-raḥḥāla al-muslimīn fī-l-ʿaṣr al-ʿuṯmānī.

محمد عفيفى

صورة مصر عند الرحالة المسلمين في العصر العثمانى

مقدمــــة

درج معظم المؤرخون إلى وقت قريب عند التطرق إلى العصر العثمانى إلى وصفه بالتدهور والانحدار. وقد يرجع ذلك الأمر إلى العديد من العوامل، التى ليس هنا مجال التطرق إليها. إذ تسعى هذه الدراسة ـ فقط ـ إلى إلقاء الضوء على أحد أهم هذه العوامل ـ فى رأينا ـ وهو الانسياق إلى النظر إلى الفترة العثمانية فى تاريخ مصر من منظور «غربى». ونقصد بذلك على وجه الدقة، أثر كتابات الرحالة «الغربيين» على كتابات «المستشرقين»، وحتى على بعض أتباع المدرسة الجديدة «ما بعد الاستشراق»، كما تأثر بعض المؤرخين الشرقيين أنفسهم بذلك الأمر.

وعلى الرغم أن الصورة التى رسمها الرحالة الغربيون لمصر فى العصر العثمانى أصبحت الآن واضحة لدى معظم المؤرخين وحتى المثقفين[١]، ومع أن موضوع دراستنا هو «الرحالة المسلمين» فأننا سنشير فقط إلى آخر هذه «النماذج» من كتابات الرحالة

[١] من أهم الدراسات عن الرحالة الأجانب فى مصر فى العصر العثمانى:
Carré, J.-M., *Voyageurs et écrivains français en Égypte*, Le Caire, 1932, 2 vol.
وأيضا:
Clément, R., *Les Français d'Égypte aux XVII^e et XVIII^e siècles*, Le Caire, 1960. Anis, M., British Travellers Impressions of Egypt in the late 18th Century, *Bulletin of the Faculty of Arts*, vol. 15 (p. 9-37).
وأيضاً ثروت عكاشة: مصر فى عيون الغرباء من الرحالة والفنانين والأدباء، جزآن، القاهرة ١٩٨٤.
وإلهام محمد على ذهنى: مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين، القاهرة ١٩٩١.
ولبيان التناقض الشديد فى كتابات الرحالة «سافارى الذى أحب كل شئ فى مصر. وفولنى الذى كره كل شئ فيها». أنظر:
ليلى عنان: الحملة الفرنسية بين الأسطورة والحقيقة، القاهرة ١٩٩٢، ص١٤.

AnIsl 33 (1999), p. 61-77 ar. ʿAFĪFĪ (Muḥammad)
حوليات إسلامية ٣٣ – ١٩٩٩
Ṣūrat Miṣr ʿind al-raḥḥāla al-muslimīn fī-l-ʿaṣr al-ʿuṯmānī.